

البيان^(١)

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

لا وجودَ للمقالة البيانية إلا في المعاني التي اشتدَّت عليها
يقيمها الكاتب على حدودٍ ويديرها على طريقة ، معيِّباً بالفاظه
مواقعَ الشعور ، مُثيراً بها مَكَانَ الخيال ، آخِذاً بوزن تاركاً
بوزن لتأخذ النفسُ وتترك

وتقلُّ حقائق الدنيا نقلاً صحيحاً إلى الكتابة أو الشعر ، هو
انترأعها من الحياة في أسلوب وإظهارها للحياة في أسلوب آخر
يكون أوفى وأدقَّ وأجمل ، لوضعه كلَّ شيء في خاصٍّ معناه
وكشفه حقائق الدنيا كشفةً تحت ظاهرها اللتبس . وتلك هي
الصناعةُ الفنيةُ الكاملة : تستدركُ النقص فتتممه ، وتتناول السر
فتعلمه ، وتلمس المقيد فتطلقه ، وتأخذ المطلق فتحدِّه ، وتكشف
الجمال فتظهره ، وترفع الحياة درجةً في المعنى ، وتجملُ الكلامَ
كأنه وجد لنفسه عقلاً يعيش به

فالكاتبُ الحقُّ لا يكتبُ ليكتب ؛ ولكنه أداة في يد
القوة المصورة لهذا الوجود ، تُصور به شيئاً من أعمالها نوعاً جيلاً
من التصوير . الحكمة الغامضةُ يريدُه على التفسير ، تفسير
الحقيقة ؛ والخطأ الظاهر يريدُه على التبيين ، تبيين الصواب ؛

(١) هذه القطعة الفنية الرائعة هي مقدمة كتاب (وسم القلم) ، ولا ريب
أن القراء سينسون منه بأبلغ وأمتع ما أخرجته الريية في هذا العهد .

وإن يكن قد قرنَ ذلك بذكر الرخص وأضافه إلى البطالة والعبث
فالأدب الإنجليزي ظل دائماً على صلة بالحياة وحقائقها ،
يعينه على ذلك ما به من روح التجديد ، وما أخذ نفسه به من
التزود من الآداب الأخرى ، وما تمتع به أقطابه من وقت قصروه
على فهم والحياة دائبة التحول والتجدد ، فلا ندحة للأدب إذا
توفقت صلته بها عن تحول أشكاله وتجدد صورته وأزيائه .
أما الأدب العربي فباعده بينه وبينها تلك العوامل السالفة الذكر ؛
فلا غرو أن جد فلم تتجدد أشكاله مع مرور الزمن ، وتحول
الأدب الإنجليزي في قرنين من أدب فاشئ مختلط الأوضاع إلى
أدب راق متجدد الصور متعدد الأشكال فخرى أبو السعود

والفوضى السائجةُ تسأله الاقرار ، إقرار التناسب ؛ وما وراء
الحياة يتخذ من فكره صلة بالحياة ؛ والدنيا كما تنتقل فيه مرحلة
نفسية لتحلوه أو تنزل . ومن ذلك لا يُخاف الملمم أبداً إلا وفيه
أعصابه الكهربائية ، وله في قلبه الرقيق مواضع للاحتراق تنفذ
إليها الأشعة الروحانية وتتساقط منها

وإذا اختير الكاتبُ لرسالة ما ، شعر بقوة تفرض نفسها
عليه ، منها سنادُ رأيه ، ومنها إقامة برهانه ، ومنها جمال ما يأتي
به ؛ فيكون إنساناً لأعماله وأعمالها جميعاً ، له بنفسه وجود ،
وله بها وجود آخر ؛ ومن ثمَّ يصبح عالماً بمنصره للخير
أو الشر كما يُوجِّه ؛ ويلقى فيه مثلُ السر الذي يلقي في الشجرة
لاخراج ثمرها بعمل طبيعي يرى سهلاً كل السهل حين يتم ، ولكنه
صعب أيُّ صعب حين يبدأ

هذه القوة هي التي تجعل اللفظة الواحدة في ذهنه معنى تاماً ،
وتحول الجملة الصغيرة إلى قصة ، وتنقلب باللمحة السريعة إلى
كشف عن حقيقة ، وهي تخرجه من حكم أشياء ليحكم عليها ،
وتدخله في حكم أشياء غيرها لتحكم عليه ؛ وهي التي تميز لفته
وأسلوبه لأنها تلتقط بمانيها ألفاظها ، وما تعطيه هو إلا لتعطي
الناس منه ، وكأ خلق الكون من الإشعاع تضع الإشعاع في
بيانه^(١)

ولا بد من البيان في الطبائع المهمة ليتسع به التصرف ، إذ
الحقائق أسمى وأدق من أن تُعرف يقين الحاسة أو تنحصر في
إدراكها . فلو حدثت الحقيقة لما بقيت حقيقة ، ولو تلبس الملائكةُ
هذا اللحم والدم لبطل أن يكونوا ملائكة ؛ ومن ثم فكثرة الصور
البيانية الجميلة للحقيقة الجميلة ، هي كل ما يمكن من طريقة تعريفها
للإنسانية

وأى بيان في خضرة الربيع عند الحيوان من أكل العُشب
إلا بيان الصورة الواحدة في معدنه ؟ غير أن صور الربيع في
البيان الإنساني على اختلاف الأرض والأمم ، تكاد تكون بعدد
أزهاره ويكاد الندى يُنضرها كما ينضرها

ولهذا سبقت كل حقيقة من الحقائق الكبرى : كالإيمان
والجمال والحب والخير والحق — سبقت محتاجة في كل عصر

(١) ثبت أن الإشعاع هو المادة التي صنع منها الكون

حب الشاعر

للأستاذ السيد محمد زيادة

ياحبها : أنا مخلوق بك ومخلوق لك ؟ .. كيف أتقها
ولجلها في كل مشرق من مشارقه سورة ، وفي كل سورة معنى ،
وفي كل معنى خلاصة وفتنة ؟ ..

كنا على موعد أنا وهي ، وكان موعدنا بين الأصيل والنروب
في حديقة سمينها حديقة الحب ؛ تترامى أطرافها ، وتُرى في
مكانها من بعيد كأنها عاشق برّح به هواء فذهب إلى الخلاء يتفرج
بالوحدة ، وتُرى من داخلها في جوها الشمري الغزلي كأنها جنة
هيئت لعاشقين

وتقوم بين أفنانها ربوة صاحبة نائمة .. صاحبة بنسيميها
الرفاق العطر ، ونائمة بمنظرها السكران الحالم ، وتظل ههنا
الربوة شجرة لقاء وارفعة تعانقت أغصانها فكان لها موقف الحب
والشوق .. وهناك على هذه الربوة تحت هذه الشجرة كان
الوعد .. والتقينا

وقبل أن يحين اللقن بساعة كنت جالساً في حجر الشجرة
أترقب من خلال أوراقها احمرار الشمس بعد تمايل الأصيل ،
وكان كل ما في الحديقة من أشجارها وزهرها يترجح ، كأنما
كان للحديقة قلب ينتظر انتظار قلبي ..

وسرّب خيالي بين أنحاء الطبيعة في أنحاء الفكر ؛ أما قلبي
فكان ممي ولم يكن ممي . . . كنت أحس أنه ممي يدق ويرتج
وهو مطمئن خائف ، وكنت أحس أنه بميد عني بعد حبيبتى
وأنه قادم معهما بعد فترة

ومررت على الدقائق ثقيلة محببة ، فكانت كل دقيقة تأتي
بعد دقيقة كأنها أجل بمتد من أجل ..

وإني لقي غمرة وذهور فكر إذ رأيت الحديقة تهتز فجأة
كأنما راعها رائع .. فتبينت فإذا بنسمة وردية تنفان في جو
الحديقة نصفين وبغذ من بينهما صوت ملاك .. وتسمعت
فإذا بها أغنية هي فن وسحر فن ، وسمعت صوت الملاك يردد :
يا حبيب القلب مالي شغلت نجومك بالي

إلى كتابة جديدة من أذهان جديدة

وفي الكتاب الفضلاء باحثون مفكرون تأتي ألفاظهم
ومعانيهم فناً عقلياً غاية صحة الأداء وسلامة النسق ، ويندرج
البيان في كلامهم فيكون كوخز الخصرة في الشجرة اليابسة
هنا وهنا ؛ ولكن الفن البياني يرتفع على ذلك بأن غايته قوة
الأداء مع الصحة ، وسمو التعبير مع الدقة ، وإبداع الصورة زائداً
جمال الصورة ؛ أولئك في الكتابة كالطير له جناح يجرى به
ويدف ولا يطير ، وهؤلاء كالطير الآخر له جناح يطير به
ويجري ، ولو كتب الفريقان في معنى واحد لرأيت المنطق في
أحد الأسلوبين يقول : أنا هنا في معانٍ وألفاظ . والالهام في
الأسلوب الآخر يقول : أنا هنا في جلال وجمال وصور وألوان
ودورة المبارة الفنية في نفس الكاتب البياني دورة خلق
وتركيب ، تخرج بها الألفاظ أكبر مما هي كأنها شبتت في نفسه
شباباً ، وأقوى مما هي كأنما كسبت من روحه قوة ، وأدل مما
هي كأنما زاد فيها بصناعته زيادة . فالكاتب العلي تمر اللغة
منه في ذاكرة وتخرج كما دخلت عليها طابع واضعها ؛ ولكنها
من الكاتب البياني تمر في مصنع وتخرج عليها طابعه هو .
أولئك أزاحوا اللغة عن مرتبة سامية ، وهؤلاء علوا بها إلى
أسمى مراتبها ؛ وأنت مع الأولين بالفكر ، ولا شيء إلا الفكر
والنظر والحكم ؛ غير أنك مع ذى الحاسة البيانية لا تكون
إلا بمجموع ما فيك من قوة الفكر والخيال والاحساس والتأثر
وللكتابة التامة المفيدة مثل الوجهين في خلق الناس : ففي
كل الوجه تركيب تام تقوم به منعمة الحياة ، ولكن الوجه
المنفرد يجمع إلى تمام الخلق جمال الخلق ، ويريد على منعمة الحياة
لذة الحياة ؛ وهو لذلك يرى ويؤثر ويعشق
وربما عابوا سمو الأديب بأنه قليل ، ولكن الخير كذلك ؛
وبأنه مخالف ، ولكن الحق كذلك ؛ وبأنه محبّر ، ولكن الحسن
كذلك ؛ وبأنه كثير التكليف ، ولكن الحرية كذلك
إن لم يكن البحر فلا تنتظر النواثر ، وإن لم يكن النجم فلا
تنتظر الشعاع ، وإن لم تكن شجرة الورد فلا تنتظر الورد ،
وإن لم يكن الكاتب البياني فلا تنتظر الأدب

محمد زيادة

(نظاً)